الفصل العاشر

أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوربية

وسائل نشر الحضارة الإسلامية فى أوربا

أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية

obeikandl.com

obeikandl.com

وسائل الحضارة الإسلامية فى أوربا

اتفق الباحثون على أن الحضارة الإسلامية كان لها أثر بالغ فى الحضارة الأوربية؛ ففى الوقت الذى كانت فيه أوربا لاتزال تضطرب فى ظلام العصورالوسطى كان المسلمون قد بسطوا نفوذهم على معظم بقاع العالم المتحضر القديم، من حدود الصين إلى جبال البرانس، وورثوا مع فتحهم فلسفة اليونان، وأفادوا من ثقافة الفرس والهند والصين والثقافة العربية الأصيلة، وأفسحوا صدورهم لهذه الثقافات والحضارات المختلفة، وأقبلوا عليها، وتولوها بالرعاية والعناية والبحث والدرس،والتصحيح والتهذيب، وأضافوا إليها الكثير من أفكارهم وابتكاراتهم، حتى بلغت غاية نضجها واكتمالها، وتميزت عما عداها من الحضارات السابقة .

والحضارة العربية لا ينتقصها ولا يقلل من شأنها أنها أفادت من الحضارات التى سبقتها، فذلك شيء طبعى؛ إذ إن سنة التطور الحضارى أن تقتبس كل أمة من معارف الأمم التى سبقتها، ولولا ذلك لكان لزاماً أن تبدأ كل أمة بما بدأت به الأمم الأخرى السابقة عليها، ولسد باب التقدم والتطور الحضاري [1]، «ولوجدنا أنفسنا اليوم فى مستوى أقرب إلى ما كان عليه الإنسان الأول فى العصر الحجرى، ولكن يكفى العرب فخرا أنهم لم يقنعوا بما تعلموه من غيرهم وإنما بحثوا وا جتهدوا وابتكروا، وأضافوا عناصر جديدة دفعت عجلة التطور الحضارى بعيداً إلى الأمام» [2] وأضاءت الطريق لأوربا؛ فقامت حضارتها وتقدمت فى خطى ثابتة واسعة حتى وصلت إلى منتهى ما أمكن للعقل البشرى أن يصل إليه .

وقد أشعت هذه الحضارة ونشرت أضواءها على أوربا بوسائل وطرق كثيرة، من أهمها وأعظمها أثرا :

---

(١) حضارة العرب ص ٥٢٩ .

(٢) من مقال للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى المجتمع العربى ص ٤٦٩ .

١- طريق الأندلس، فقد أقام العرب هناك جامعات زاهرة قصدها طلاب العلم من أوربا، ونشر هؤلاء الطلاب فى بلادهم ما تعلموه من العرب، كما انتفع الأوربيون بدور الكتب الكثيرة التى كانت منتشرة فى أسبانيا، مما ساعد على إحياء العلوم فى أوربا فيما بعد .

٢- طريق صقلية، فإن المسلمين ظلوا فى هذه البلاد زهاء ١٣٠ سنة، فأصبحت المركز الثانى لنشر الثقافة العربية فى أوربا، وكان الملوك المسيحيون هناك يشجعون علماء العرب على الإنتاج العلمى، كما كانوا يدفعون رعاياهم إلى ترجمة الكتب العربية .

٣- طريق الشرق، فقد كانت الحروب الصليبية، والحج إلى بيت المقدس مدعاة لاختلاط الأوربيين بالعرب، فنقلوا عنهم الكثير من علومهم ومعارفهم وفنونهم وصناعتهم، كما حصلوا على كثير من الكتب العربية؛ فساعد ذلك على ضهور روح البحث، ودراسة علوم الأقدمين وآدابهم وفنونهم .

* * *

أثر الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوربية

ألممنا فيما تقدم بما حققه العرب فى ميادين العلوم على اختلافها، وتبين فضلهم وأثرهم فى هذه الميادين، ومدى ما قدموه للعلم والحضارة من معارف وابتكارات لم يسبقهم أحد إليها .

وعرفنا كيف وصلت هذه الحضارة العظيمة إلى أوربا فأيقظتها من سباتها، وبقى أن نعرف ما كان لها من أثر واضح فى الحضارة الأوربية وتقدمها فنقول فى إيجاز :

إنه فى خلال الفترة الذهبية فى تاريخ الإسلام، أنشئت المدارس فى مختلف البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً، وكثرت المكتبات، وامتلأت بالمؤلفات فى مختلف العلوم حتى لقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس على ستمائة ألف مجلد، وكان بالأندلس سبعون مكتبة عامة، إلى جانب الكثير من المكتبات الخاصة .

اجتذبت هذه المدارس وتلك المكتبات الباحثين عن المعرفة من العالم المسيحى والإسلامى على السواء، وكان ممن درسوا فى مدرسة طليطلة وأفاد منهم العلم : ميشيل سكوت، ودنيال مورلى . وأديلارديات، وروبرتوس انجليكوس وهو أول من قام بترجمة القرآن .

وفى مجال الطب، نجد مثلا أن كتاب « الحاوى » للرازى المؤلف من عشرين مجلدا، يجمع كل المعلومات الطبية التى كانت معروفة فى زمانة، وظل المرجع الوحيد المعترف به فى جامعات أوربا حتى القرن السابع عشر .

وفى علم البصريات حقق المسلمون أعظم تقدم علمى، ورسالة الكندى فى العلم هى التى اعتمد عليها روجر بيكون فى دراسته لهذا الموضوع .

وقد عارض الكندى كل من سبقه من العلماء الذين اعتقدوا أن العين ترسل أشعة تبصر بها الشيء المرئى، فقرر هو أن شكل الجسم المرئى هو الذى ينفذ إلى العين مارا خلال الفتحة الشفافة (العدسة)، وقد اعترف بأثره بيكون ودافينشى وكيبلر .

وفى الكيمياء يعتبر جابر بن حيان مؤسس هذا العلم، فهو الذى نظم كثيرا من طرق البحث والتحليل، وركب عددا من المواد الكيماوية، وكانت أبحاثه وما توصل إليه من معلومات هى المراجع الأولى فى أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادى .

وفى الرياضة يرجع إليهم الفضل فى الطرق الحسابية المستعملة فى الحياة اليومية فى عصرنا الحاضر، وهم الذين جعلوا من الجبر علما حقيقيا، وتقدموا به تقدما كبيرا، حتى اعتبروا أنهم هم الذين وضعوه، كما أسسوا علم الهندسة التحليلية وحساب المثلثات، الذى لم يكن معروفا عند اليونانيين .

وفى الفلك توصلوا إلى كثير من النتائج القيمة، وحفظوا للأوربيين فى ترجمتهم للكتب اليونانية كثيراً من المؤلفات التى فقدت أصولها، وهم الذين قالوا بنظرية كرية الأرض التى أخذها عنهم من جاء بعدهم فى العصور الوسطى .

وفى علم طبقات الأرض يعتبر ما كتبه الرئيس ابن سينا فى كيفية تكوين الجبال والأحجار والمواد المعدنية وما إلى ذلك، من أهم المراجع التى اعتمدت عليها أوربا، فى إبان نهضتها العلمية .

وفى علم الاجتماع، يعتبر ابن خلدون أول مفكر اجتماعى؛ فهو أول من صاغ قوانين تقدم الأمم وانهيارها، وأول من عرف للعوامل الطبيعية والجغرافية والمناخية تأثيرها وأهميتها فى ذلك .

وفى اللغة والآداب والفنون، أثر الشعر العربى فى الأغانى والأناشيد الأسبانية، يقول جيب: «إن أعظم أثر للأدب العربى كان فى بعث روح الكتابة، فقد حرر الفكر الأوربى من النطاق الضيق التقليدى المميت» .

والغرب مدين للعرب أيضاً بإدخال الكثير من الاصطلاحات والآلات الموسيقية، وقد تفوق المسلمون كثيراً فى الفن والنقش وأشغال الذهب والفضة والآنية،وعنهم أخذت أوربا، كما تأثرت الفنون المعمارية فى الغرب بعناصر الفن الإسلامي .

وفى التجارة كان المسلمون رواد العالم الحديث، فقد أنشأوا النقابات، وعرفوا نظام الحوالات، وخطابات الاعتماد ووثائق الشحن .

وفى الفلسفة، يعد ما قام به الفلاسفة المسلمون من أعظم ما أمدت به الثقافة الإسلامية الفكر الأوربى، فقد نقلوا فلسفة اليونان، وبعثوها من جديد، وبخاصة مؤلفات أرسطو، وحتى القرن الرابع عشر كانت جامعة باريس لا تعترف بآراء أرسطو إلا على الوجه الذى تحدده تفسيرات ابن رشد .

وكانت كتابات الغزالى وابن رشد على وجه الخصوص، لها تأثير كبير على فلاسفة اللاهوت المسيحى؛ ومن بين المفكرين المسيحيين الذين تأثروا بفلسفة الغزالى وابن رشد، القديس توماس اكيناس، الذى وصلت إليه أراؤهما عن طريق مؤلفات ريموند مارتين، الذى تعلم فى مدرسة طليطلة .

وقد اتفق القديس توماس مع الغزالى فى كثير من المسائل أهمها: قيمة الفكر الإنسانى فى إثبات الحقائق الإلهية، والتوصل من مبدأ الافتقار والضرورة إلى إثبات وجود الله، ووحدة الله المبنية على اتصافه بكل كمال، وإمكان رؤية ذاته، وكونه عالما، وذاته بسيطة غير مركبة: وعقيدة البعض بعد الموت (١) .

وهكذا حفظت الحضارة الإسلامية لحضارات العالم الحديث ماوصلت إليه حضارة الأقدمين، كما أضافت إليها ما ابتكرته، وتوصلت إليه فى مختلف العلوم والفنون . ولولا هذه الفترة الزاهرة فى تاريخ الحضارة والفكر الإنسانى، وعناية العرب بالحضارات القديمة السابقة لضاعت معالم تلك الحضارات، ولما وصلت حضارات العالم الحديث إلى ماوصلت إليه؛ فإن أوربا حينما استيقظت وأفاقت من سباتها على ضوء لحضارة الإسلامية، وسنا برقها، واتجهت إلى هذه الحضارة الشامخة التى بهرتها، تنهل منها وتروى ظمأها، وظلت هكذا حتى ارتوت، وسارت فى طريق العلم والعرفان، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه الآن .

ومن ثم، يتبين أن الحضارة الإسلامية قد أسهمت فى وضع أساس الحضارات الحديثة بنصيب موفور ، وأن فضلها عليها واضح غير منكور؛ وفى الحق، إن الحضارة

---

(١) أثر الإسلام فى المسيحية للمستر كراندال ص ٨ .

الإسلامية قد أحدثت ثورة علمية، عم يمنها وخيرها العالم الإنسانى كله، وقد اعترف بذلك كثير من المنصفين الأوربيين، يقول سارطون: « . . . إن بعض المؤرخين يجربون أن يستخفوا بتقدمة الشرق للعمران، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئا ما . . . إن هذا الرأى خطأ، وإنه لعمل عظيم جداً أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية، ويحافظوا عليها؛ لولا ذلك لتأخر سير المدنية بضعة قرون » . .

ويعتقد الدكتور سارطون أن العرب كانو أعظم معلمين فى العالم، وأنهم زادوا على العلوم التى أخذوها، وأنهم لم يكتفوا بذلك، بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء .

ويقول نيكلسون: « . . . وما المكتشفات اليوم لا تحسب شيئاً مذكوراً إزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء فى القرون الوسطى المظلمة ولا سيما فى أوربا . . . » .

ويقول ذى فو « . . . إن الميراث الذى تركه اليونان لم يحسن الرومان القيام به، أما العرب فقد أتقنوه، وعملوا على تحسينه وإنمائه حتى سلموه إلى العصور الحديثة . . » .

ويقول سيديو « كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون، قد نشروهما أينما حلت أقدامهم، وتسربت منهم إلى أوربا؛ فكانوا هم سبباً فى نهضتها وارتقائها » .

كما يذهب إلى أن العرب هم فى واقع الأمر أساتذة أوربا فى جميع فروع المعرفة (١) .

وأخيراً نقول كما قال السيد أمير على : « وإنا نجد المسيو سيديو، لا يعدو الواقع فى قوله: إن الكنوز الأدبية العظيمة التى أوجدها العرب فى ذلك العصر، ونتاج

---

(١) راجع مقدمة كتاب: العلوم عند العرب للأستاذ حافظ طوقان .

نبوغهم العلمي، واختراعاتهم الثمينة تنهض دليلا على نشاطهم الفكرى، وتؤيد الرأى القائل: بأن العرب هم أساتذتنا فى كل شىء، إذ إنهم زودونا بمواد جليلة القيمة فى تاريخ العصور الوسطى، وبأسفار مجيدة فى التراجم، وتركوا لنا صناعة لا مثيل لها، وفنًا معماريًا آية فى الروعة والجمال، واكتشافات هامة فى الفنون والصناعات »[1].

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص ٣٩٥ .

obeikandl.com